

الوزير نظام الملك و أثره في ازدهار الحياة الفكرية في العالم الإسلامي أ. كريبي خالد المركز الجامعي بريكة

الملخص:

يعد الوزير نظام الملك الطوسي من الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي ،فقد لعب دورا رئيسيا في احدى فترات العصر العباسي الثاني ،فكان على صلة مباشرة في توجيه الاحداث نتيجة منصبه و صلته الوثيقة بالسلطين السلاجقة العظام (آلب ارسلان -ملكشاه) و مساهمته في توثيق العلاقة و تيسير التعاون بين الخلافة العباسية و السلطنة السلجوقية و إبراز المصالح المشتركة بينهما. و قد بذل الوزير جهودا مضنية للنهوض بالحياة الفكرية التي تعثرت و تمذهبت قبل السلاجقة أيام الأسرة البويهية الشيعية المذهب حيث أسس المدارس النظامية في كل ارجاء العراق ،ووفر البيئة المناسبة للعلم و التحصيل العلمي للعلماء و الطلبة على حد سواء.

Abstract:

The minister Nizam Elmolck Altoussi was one of the prominent figures in Islamic history. He played a major role in one of the periods of the second Abbasid period. He was directly involved in directing the events as a result of his position and his close connection with the great Seljuk sultans (Arsalan-Malakshah).He contributed in facilitating cooperation between the Abbasid caliphate and the Seljuk Sultanate and highlighting the common interests between them.

The minister made great efforts to promote the intellectual life that faltered before the Seljuks during the Shiite Buhayyah Dynasty, where he established regular school(alnizamiat) throughout Iraq and provided the appropriate environment for science and scientific achievements of scholars and students as well.

الكلمات المفتاحية : نظام الملك - المدارس النظامية - الب أرسلان - الشافعية - الاشاعرة - الغزالي - الصوفية.

ليس المقصود من هذه الدراسة تعريف القارئ بماهية منصب الوزارة ، أو إعطاء ترجمة عن حياة احد وزراء هذا العصر فقط، وإنما الهدف الذي قصدناه من وراء هذه الدراسة هو إلقاء الضوء على الدور الذي لعبه احد أشهر وزراء في العصر العباسي الثاني في مختلف الجوانب العامة مما أحدث تغييرًا في أوضاع المجتمع الإسلامي ؛ سواءً سياسياً ، أم اقتصادياً ، أم إدارياً ، أم اجتماعياً وهذا ما سنحاول معرفته من خلال هذا المقال حول أحد الوجوه السياسية والعلمية البارزة في التاريخ الإسلامي ألا وهو وزير دولة السلاجقة¹، الوزير نظام الملك الطوسي، الذي كان له دور بارز في ظهور السلاجقة كقوة رئيسية مؤثرة على مسرح الأحداث في المشرق الإسلامي وتوثيق علاقتها بالخلافة العباسية و إحلال الانسجام بينهما و إزالة أسباب الخلاف . مما ساهم في تغيير الأوضاع السياسية، بل أيضا ساهمت بفاعلية في خلق نهضة علمية بالغة الأثر يرجع الفضل في التأسيس لها وتنفيذها لهذا الوزير .

تعريف بنظام الملك:

الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي الملقب بنظام الملك، من أشهر وزراء التاريخ الإسلامي ، وأشهر وزراء الدولة السلجوقية، كانت ولادته سنة 408هـ / 1018 م في نُوقَان² احدى القرى التابعة لولاية

طوس ، نشأ نظام الملك فقيراً ولكنه كان عالي الهمة، وحرص والده على تنشئته نشأةً صالحةً وتعليمه القرآن، وقد أتم حفظه في الحادية عشرة من عمره، ثم عهد به إلى مربٍ حصيفٍ تعاهده بالعلم والأدب، ودرسه فنون العربية والفقه والحديث قرابة عشر سنين، ثم سمت همته إلى الرحيل في طلب العلم، فاستأذن والده ورحل إلى نيسابور⁽³²⁾.

اهتم في شبابه بعلوم الحديث كما تعلم الكتابة والحساب ، وعمل في دواوين الدولة الغزنوية في غزنة⁴، فبرع في علوم الكتابة والحساب والانشاء واكتسب التجربة والخبرة الادارية . عينه السلطان ألب أرسلان وزيراً له ، وكان وزيره أثناء إمارته على خراسان قبل توليه السلطنة ، و عقب وفاته استوزر لابنه ملكشاه⁵، فأقره ملكشاه على الوزارة و زاد على ذلك بأن فوض إليه تدبير المملكة، ولقبه ألقاباً كثيرة، أشهرها لقب " أتاك " ⁶ ، ومعناه الأمير الوالد، وكان نظام الملك أول من أطلق عليه هذا اللقب .

دوره في الحياة السياسية:

كان منصب الوزارة أو الصدارة كما يعرف في العصر السلجوقي هو أعلى منصب في الدولة ،حيث يشرف الوزير على جميع مرافق الدولة و يقدم المشورة و النصيحة للسلطان و هو عون و مساعده في جميع الأمور و كان من الطبيعي أن يلجأ السلاطين السلاجقة الأوائل و هم غير متقنين إلى استخدام الوزراء لانجاز حوائجهم والمحافظة على سلطانهم ،و إليهم يرجع الفضل في تثبيت أقدامهم على العرش و يكفي ما فعله نظام الملك و أولاده من أجل سلاطين السلاجقة و دولتهم التي كانت تحت تصرف أسرة هذا الوزير .

وبلغ نفوذ الوزير السلجوقي حدا كبيرا إلى درجة التدخل في شؤون الخلافة ،و طبيعي أن ينعكس ذلك على الحياة الفكرية التي هي انعكاس للواقع السياسي و تداعياته ،ذلك أن تكوين الوزير و ميولاته تجعله يشارك و يعتني بها و يساهم في ازدهارها كما فعل نظام الملك الذي اتخذه السلطان ألب أرسلان سنة 455هـ/1063م، أي بعد عام من تقلده زعامة دولة السلاجقة وزيراً له، بعد أن كان قد عمل مع داود بن ميكال، والد ألب أرسلان عندما كان يحكم خراسان، وقد علم بذكاءه وفطنته، وقدرته على تصريف الأمور، فما كان من داود إلا أن ألحق نظام الملك بحاشية ابنه طالباً منه أن يستفيد من قدرات نظام الملك، ويعرف له حقه قائلاً له: "اتخذه والداً، ولا تخالفه" فيما يشير به.

وظل نظام الملك وزيراً ومساعداً لألب أرسلان أكثر من تسع سنوات فازدهرت الدولة في اثنائها وتوطدت دعائمها، وارتفع شأنها، واتسعت حدودها، وتوجت جهود ألب أرسلان والوزير نظام الملك بالانتصار على الروم البيزنطيين في معركة ملاذكرد الخالدة.و أنهى حالة القلق الفكري الذي كان سائداً قبله حين أعاد الاعتبار للأشاعرة و أحسن اليهم ؛بعد الأذى الذي لحق بهم أيام وزير السلطان طغرليك عميد الملك الكندي.

و استطاع هذا الوزير فيما بعد ان يرجح بقوته و نفوذه كفة ملكشاه اكبر أبناء ألب أرسلان بعد أن دب الخلاف و الصراع بينهم ليصبح ثالث سلاطين السلاجقة.

كان السلطان الجديد في العشرين من عمره، والوزير نظام الملك في الخامسة والخمسين، وأسند ملكشاه الوزارة لنظام الملك حتى تستقر الأوضاع في الدولة التي كان يضعفها صراع الأمراء على السلطة، وقد ألقى إليه بمقاليد الأمور، ووضع فيه ثقته .

وأدت هذه العلاقة الوثيقة بين السلطان السلجوقي ملكشاه ووزيره الفذ نظام الملك إلى ازدهار الدولة وبلوغها ذروة المجد، فاتسعت حدودها، حتى شمل سلطانها بلاد الشام، وأجزاء من بلاد الروم، ومدت نفوذها إلى كرمان وآسيا الصغرى وأصبحت دولة مترامية الأطراف تمتد من الصين والهند شرقاً، إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً.. بل صارت أكبر قوة في العالم آنذاك.

دوره في الحياة العلمية:

كان نظام الملك عالماً أديباً، فشحج على نشر العلم والثقافة، وأنشأ المدارس لخدمة هذا الغرض عرفت بالمدارس النظامية و نالت صيتاً ذائعاً في كل أنحاء العالم الإسلامي، و تولى التدريس فيها أكابر العلماء الذين كان لهم دوراً في تطوير الحركة العلمية بما خرجوا من طلبة نجباء كان لها فضل كبير على تكوينهم الفكري، و علو منزلتهم العلمية، و بما تركوا من مؤلفات نفيسة⁽⁷⁾.

، وشمل العلماء و الكتاب و الشعراء بكثير من رعايته و تشجيعه، فاجتمع حوله الكثيرون منهم، و ألفوا كتباً، و قدموها له و نظموا الأشعار في مدحه و الإشادة بفضله يقول السبكي: « ملك طائفة الفقهاء بإحسانه، و سلك في سبيل البر معهم سبيلاً لم يعهد قبل زمانه هو أشهر من بنى المدارس، و شيد أركانهم.... و مجالسه معمورة بالعلماء، مأهولة بالأئمة و الزهاد، لم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه، و ترادهم إلى بابه، و ثنائهم على عدله و تصنيفهم الكتب باسمه »⁽⁸⁾.

امتدت أيام وزارة نظام الملك ثلاثين عاماً (455-485هـ)، كان فيها وزيراً هادفاً و ليس محترفاً يتخذ من السياسة وسيلة للوصول إلى منصب أو جاه، لم يغفل عن الإنعام على العلماء، و خدمة رجال المعرفة، و كان ينفق الكثير من ماله على أهل العلم و الأدب، فكان أهل الدين و العلم و الفضائل راتعون في إنعامه و كان نظام الملك عالماً من جلة الوزراء خادماً للعلم و أهله، متواضعاً مع جميع الناس، لا يمنع أحداً من الدخول عليه، جواداً كريماً، و كان يتصدق، و يعطي أصحاب الحوائج، و ينعم بالأموال الطائلة و الهبات الجزيلة، و دولته كلها فضل، و أيامه جميعها عدل، و وقته وابل بالسماح مغدق، و مجلسه بجماعة العلماء صباح مشرق⁽⁹⁾.

لقد كان مجلس الوزير عامراً بالفقهاء و أئمة المسلمين و أهل التدين حتى كانوا يشغلونه عن مهمات الدولة، فقال له بعض كتابه: « هذه الطائفة من العلماء قد بسطتهم في مجلسك حتى شغلوك عن مصالح الرعية ليلاً و نهاراً، فإن تقدمت أن لا يوصل أحد منهم إلا بإذن، و إذا وصل جلس بحيث لا يضيق عليك مجلسك ». فقال: هذه الطائفة أركان الإسلام، و هم جمال الدنيا و الآخرة، ولو أجلست كلا منهم على رأسي لاستقلت لهم ذلك⁽¹⁰⁾.

وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري⁽¹¹⁾، و أبو المعالي الجويني⁽¹²⁾ قام لهما و أجلسهما معه في المقعد، فإن دخل أبو علي الفار مذي⁽¹³⁾ قام و أجلسه مكانه، و جلس بين يديه، فعوتب في ذلك فقال: «إنهما إذا دخلا

عليّ قالاً: أنت وأنت، يطروني، ويعظوموني ويقولون في ما لا في، فأزداد بهما ما هو مركز في نفس البشر، وإذا دخل علي أبو علي الفار مذي ذكرني عيوبي وظلمي، فأنكسر، فأرجع عن كثير مما أنا فيه»⁽¹⁴⁾.

لم يكن نظام الملك وزيراً لامعاً ، وحسب بل كان راعياً للعلم والأدب، ويحفل مجلسه بالعلماء والفقهاء والأدباء، بل كان هو أحد هؤلاء العلماء والفقهاء، فقد كان يحب العلم وخصوصاً الحديث، شغوفاً به وكان يقول: "إني أعلم بأني لست أهلاً للرواية، ولكني أحب أن أربط في قطار نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم". وكان حريصاً على نشر العلم ومذهب أهل السنة الذي حاربه وحاول طمسه البويهيون والعبيد يون الشيعة.

اعتمد نظام الملك من أول يوم لوزارته سياسة تقريب الرجال العلماء، الأكفاء والصالحين: فقد قال يوماً لألب أرسلان، وقد خاف من عمه الذي خرج عليه يريد قتاله: «يا أيها الملك، لا تخف فإنني قد استدمت لك جنداً، ما بارزوا عسكرياً إلا كسروه كائنا ما كان، قال له ألب أرسلان: من هم؟، قال: جند يدعون لك وينصرونك بالتوجه في صلواتهم وخلواتهم، وهم العلماء والفقهاء الصالحاء»، لذا ارتكز مشروعه الإحيائي للمذهب السني والإصلاحي لشؤون الحكم على قاعدتي الجهاد والعلم. وكان بالفعل محباً لأهل العلم والإحسان إليهم، حتى أنه خصص لـ 12 ألف من العلماء في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية رواتب ثابتة تصرف لهم بانتظام⁽¹⁵⁾.

و أحب نظام الملك الصوفية ، و كانوا محط أنظاره مورد عنايته ، حتى قيل أنه لم يكن يعير اهتمامه لغير الأئمة و المتصوفة ، و كان ينفق عليهم و يؤمن لهم نفقاتهم سنويا ، و يهتم بإيجاد خانقاهاتهم⁽¹⁶⁾ ، و يعتقد في شيوخهم ، و هي كلها عوامل زادت في أهميته لدى المسلمين⁽¹⁷⁾. وأبعدت عن أعماله التعصب المذهبي و التحيز الطائفي، حيث كان يعتبر نفسه خادماً للإسلام ، وعمل طيلة الثلاثين سنة التي استوزر فيها على إقامة الوحدة الإسلامية على أساس جعل المذهب السني مذهباً عاماً للمسلمين و محاربة الشيعة عامة، و الباطنية خاصة حرباً لا هوادة فيها .

نهاية الوزير نظام الملك:

قتل نظام الملك في 10 من رمضان سنة 485هـ / 1092م بالقرب من نهاوند وهو خارج مع السلطان من أصفهان إلى بغداد، حيث اعترضه صبي ديلمي في هيئة مستغيث ، فلما تقرب منه نظام الملك لسمع شكواه، طعنه ذلك الديلمي بسكين في قلبه فقتله، وحمل جثمانه إلى أصفهان فدفن هناك في تربة المدرسة التي أسسها وكان عمره عند الوفاة حوالي سبع وسبعين سنة.

و شاء القدر أن يقتل نظام الملك على يد ألد أعدائه و أبغضهم إلى قلبه و هم الباطنية ، و قد رثاه الكثير من الشعراء منهم صهره شبل الدولة مقاتل⁽¹⁸⁾ :

كَانَ الْوَزِيرُ نِظَامَ الْمَلِكِ لَوْلَوْ نَفِيسَةٌ صَاغَهَا الرَّحْمَنُ مِنْ شَرَفِ
عَزَّتْ فَلَمْ تَعْرِفِ الْأَيَّامَ قِيمَتَهَا فَرَدَّهَا غَيْرَةً مِنْهُ إِلَى الصَّدْفِ⁽¹⁹⁾

قال عنه ابن عقيل: « بهرت العقول سيرة النّظام جوداً و كرمًا و عدلاً وإحياء لمعالم الدين ، كانت أيامه دولة أهل العلم ، ثم ختم له بالقتل و هو ماؤز إلى الحج في رمضان ، فمات ملكاً في الدنيا ، ملكاً في الآخرة، رحمه الله»⁽²⁰⁾.

الهوامش

- (1) - نشأت هذه الأسرة. في تركستان ولظروف ما هاجرت بقيادة كبيرها سلجوق الذي تنسب الأسرة إليه وبين خراسان وبخارى وأصبهان، تراوحت إقامتها حتى استقرت بمرور حيث هاجمها السلطان غزنوي مسعود ولكنه هزم أمامها. وأصبحت الخطبة تلقى بمرور باسم داود السلجوقي نجل سلجوق الكبير، وكان هذا في سنة 433 هـ. ومن مرور انتشر سلطان السلاجقة إلى الري وإلى خوارزم، وبدأ تاريخهم يظهر كقوة لها كيانها المستقل في العالم الإسلامي خلال القرن الخامس للهجرة. صدر الدين علي الحسيني: زبدة التواريخ أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، دار اقرا، بيروت، 1985، ص 114
- (2) - احدي قصبتي طوس لأن طوس ولاية و لها مدينتان احدهما طابران و الأخرى نوقان ، و قد خرج منها خلق من العلماء ، ياقوت الحموي : معجم البلدان، دت ،صادر ،بيروت،1977، ج 05 ، ص 311
- (3) - تاج الدين السبكي :طبقات الشافعية الكبرى،تحقيق محمود محمد الطناحي،دار إحياء الكتب العلمية ،القاهرة،دت ، ج 04 ، ص 309 . الذهبي:سير اعلام النبلاء،مؤسسة الرسالة بيروت ، 1988 ج 19 ، ص 94
- (4) - مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهي الحد بين خراسان و الهند، ينسب اليها الكثير من العلماء ، وهي عاصمة الدولة الغزنوية، ياقوت: المصدر السابق، ج 04، ص 201
- (5) -السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه بن آب أرسلان ولد سنة 447 هـ و توفي سنة 485 هـ هو عمره 38 سنة،تسلطن بعد وفاة أبيه سنة 465 هـ/1073م ، وجعل وزيره نظلم الحكم ، كان من أحسن الملوك سيرة لقب بالسلطان العادل، وكان منصوراً في حروبه ، ورعا، تقياً بعيداً عن الحرص و الطمع ،و من خيرات السلطان ملكشاه أحواض الماء التي بناها على طريق الحجاز وجامع السلطان ببغداد أنظر : الرواندي : راحة الصدور و آية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ترجمة ابراهيم أمين الشواربي وأخرون ، دار القلم ،القاهرة 1960 ،ص 205
- (6) - أتابك كلمة تركية ، تتألف من لفظين (أتا) تعني الكبير أو الشيخ المحترم لكبر سنه و (بك)بمعنى أمير و أول من لقب بهذا اللقب نظام الملك الطوسي وزير لسلطان ملكشاه و معنى الكلمة الامير المسن ، و هو أكبر الأمراء المتقدمين بعد النائب. و في الاصطلاح تعني مربي الأمير. ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام ،دار الجيل ،لبنان ، 2001، ط 15، ج 04، ص 62
- SOURDEL :LaCivilisationdeL 'Islam Classique , B.Arthaud,Paris , 1968,p 112. ET J.D -
- (8) -السبكي تاج الدين : المصدر السابق ، ج 04، ص 309-328
- (9) - الذهبي :المصدر السابق، ج 19 ، ص 96
- (10) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك،دار الكتب العلمية لبنان ، 1992، ج 16 ، ص 303
- (11) - أبو القاسم القشيري: عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن محمد بن طلحة النيسابوري (375-465هـ) ، كان علامة في الفقه و التفسير و الحديث و الأصول ، صنف التفسير الكبير و الرسالة ،سجن أيام طغرلبيك في نيسابور بسبب الذي حل بالأشاعرة و كان هذا سبباً في مغادرته نيسابور ، درس بنظامية بغداد. - الذهبي : المصدر نفسه ج 18 ص ص: 327-
- 332 ، السبكي: المصدر السابق، ج 05، ص ص : 153-159.
- (12) - أبو المعالي الجويني : عبد الملك بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن عبدالله الجويني النيسابوري (419 - 478 هـ) شيخ الشافعية ، كان يتردد إلى مدرسة البيهقي ، ارتحل إلى بغداد ثم حج وجاور أربع سنين يدرس ، ويفتي ثم عاد و درس

- بنظامية نيسابور 30 سنة، من كتبه "الإرشاد في أصول الدين"، "الرسالة النظامية" أنظر السبكي: المصدر نفسه، ج 05، ص 165-184، الذهبي: المصدر نفسه، ج 18، صص: 468-475
- (13) - الفارمذي: الفضل بن محمد الفارمذي الخراساني (407-477هـ) الامام الكبير، شيخ شيوخ في عصره، المنفرد بطريقته في التذكير، صحب القشيري، كان عالما شافعيًا، عارفا بمذاهب السلف و حصل له قبول عند نظام الملك-الذهبي: المصدر نفسه ج 18 ص 565، ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1986، ج 05، ص 333
- (14) - ابن الجوزي: المصدر نفسه، ج 16، ص 303
- (15) - الصلابي: دولة السلاجقة، دار التوزيع و النشر الإسلامية، مصر، 2006، ص 126
- (16) - الخانقاه: مكان يجتمع فيه الصوفية للذكر و العبادة
- (17) - محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي و العسكري، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، مصر، 2001، ص 207
- (18) شبل الدولة مقاتل: هو أبو الهيجاء مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري، صهر نظام الملك، لأن نظام الملك كان قد زوجه إبنته، ابن خلكان: وفيات الأعيان و أنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1994، ج 02، ص 130
- (19) - ابن العماد: المصدر السابق، ج 05، ص 364
- (20) - الذهبي: المصدر السابق، ج 19، ص 96